الكنيسة في مملكة بيت المقدس عصر الحروب الصليبية

الدور والواجبات (1099 – 1187)

الأستاذ الدكتور : فتحي عبد العزيز محمد، جامعة الباحة، السعودية

الدكتور: أشرف صالح محمد سيد، جامعة ابن رشد – هولندا

الملخص:

موضوع هذه الدراسة هو واجبات الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية منذ قيام المملكة 1099 وحتى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي 1187. وذلك للتعرف على دور الكنيسة وطبيعته، وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه، ومعرفة أثره. مع تناول التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، حيث أن الفترة التي يعرض لها البحث تمثل المرحلة الهامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية فقد كانت مرحلة خصبة تعددت فيها أعمال وأنشطة وعلاقات الكنيسة.

Abstract:

The subject of thisstudy isthe role of the Church in Latin kingdom of Jerusalem, since the establishment of the Kingdom 1099, and even recover Jerusalem by Saladin 1187.To identify the role of the Church, it's objectives, impact, and achievements that has had a direct impact on the future of the crusading movement.In addition to showcasing ecclesiastical Latin presence in the Holy Land,where period of the study represents an important stage in the history of the Latin Church. It was a fertile phase; there was many Works, activities and relations of the church.

مقدّمة:

قبل قدوم الصليبيين إلى منطقة فلسطين وتأسيس مملكة بيت المقدس لم يكن هناك أي وجود للشعائر الدينية اللاتينية على أرض تلك المنطقة، فيما عدا مستشفى القديس يوحنا في القدس التي كانت تقدم خدماتها للحجاج اللاتين.ومع مقدم الصليبيين إلى المدينة المقدسة، وقيام حكمهم فيها، واتساع رقعة الأرض التي سيطروا عليها بدأت الكنيسة اللاتينية تأخذ شكلها تدريجيًا فوق الأرض المقدسة.

وتأتي أهمية هذا البحث من ندرة الكتابات العربية المتخصصة التي تناولت موضوع التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، فالفترة التي يعرض لها البحث تعددت فيها أعمال، وأنشطة، وعلاقات الكنيسة، مما يجعلها مرحلة هامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية.

وفي سبيل إنجاز هذا البحث تم اتباع المنهج العلمي التاريخي لدراسة دور الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس والتعرف عليه، وعلى طبيعته وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه ومعرفة أثره، وما حققه من نتائج كان لها أثرها المباشر على مستقبل الحركة الصليبية. وعلى هذا تناول البحث شكل وتنظيم ومنشآت الكنيسة، وثرواتها، ثم واجبها في الحرب، بالإضافة إلى واجباتها الرعوية الأخرى (أعمال الحج ورعاية الحجاج، الأعياد، العماد، الإصلاحات الكنسية)، وذلك من خلال خمس عناصر رئيسة هي:

- تنظيم الكنيسة في بيت المقدس.
- المنشآت الكنسية.
- ثروات الكنيسة ومصادر الدخل.
- دور الكنيسة في الحرب.
- الواجبات الرعوية.

1. تنظيم الكنيسة في بيت المقدس

لقد بدأ تنظيم الكنيسة مع بداية اختيار البطريرك، وكان ذلك العمل منطقيًا، فقد كانت بطريركية بيت المقدس خالية من بطريركها الأرثوذكسي الذي ترك المدينة قبل قليل من قدوم الصليبيين، كذلك فإن اللاتين كانوا الغالبية المسيطرة على المدينة المقدسة حينذاك[1] وتزامن تنظيم الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس مع فتوحات وتوسعات الملوك،كما كان للعلاقة بين البطريرك والملك أثرها الواضح في شكل التنظيم.

لقد حصلدايبرت من جودفريالبوايوني، أول حاكم للقدس على ربع مدينة يافا، ووعد بإعطائه يافا والقدس معًا في حالة اتساع المملكة أو موته دونما وريث شرعي [2]، بينما لم يتمكن من الحصول على مكسب ذي بال لصالح الكنيسة في عهد بلدوين الأول بسبب الخلاف الذي شجر بينهما.ولم يتغير الوضع في بطريركية ايفرمار (1102-1108م) الذي كان يفتقر إلى القدرات التي يتحتم أن يتمتع بها رجل في مثل منصبة.

ولقد كان خليفته جبلين (1108-1112م) قادرًا على ممارسة دوره في تنظيم الكنيسة اللاتينية دونما معارضة من أي جانب لفوزه برضاء كل الأطراف سواء الملك أو رجال الدين.

اعتلى جبلين عرش البطريركية سنة 1108م، ولم يكن يتبع بيت المقدس سوي أسقفيتين، أقيمت الأولى في الرملة أثناء تقدم الصليبيين صوب بيت المقدس سنة 1099م [3]، وأقيمت الثانية في قيسارية عند استيلاء بلدوين الأول عليها سنة 1101م، وقام برسم أسقف لاتيني بها في نفس العام. ودفع ذلك العمل مؤرخًا مثل ريتشارد إلى القول بأن تنظيم الكنيسة كان عملاًارتجاليًا [4] وكان على جبلين أن يعمل من أجل تنظيم الكنيسة بصورة منطقية، وقد كان اهتمامه الأول توفير الخدمة الكنسية التي تتناسب وقدسية بعض الأماكن، مثل بيت لحم التي قام برفعها إلى أسقفية رغم تعارض ذلك مع النظام الكنسي الأرثوذكسي السابق. وتكرر ذلك الأمر أكثر من مرة في مملكة بيت المقدس.

وكان هناك أكثر من سبب لمثل ذلك العمل بالنسبة لبيت لحم، لقد حظيت كنيسة المهد بقدسية خاصة، وتم بها تتويج بلدوين الأول ملكا، كما أن بلدوين الأول أراد رفعها إلى أسقفية وقام ببعض الإجراءات في هذا الشأن رغم أنها تتبع عسقلان حسب التنظيم الكنسي الأرثوذكسي وأرسل إلى البابا حول الأمر.

وكان جبلين على علم برغبة بلدوين قبل قدومه إلى القدس، فقد عهد إليه البابا باسكال الثاني ببحث الموضوع. وبقرار من البطريرك وموافقة من الملك ورجال الدين تم تنصيب اشيتنوس Aschetinus كأول أسقف لاتيني لبيت لحم على أن تتبعه عسقلان التي لم يستول الصليبيون عليها قبل سنة 1153م.

كذلك قام جبلين بتنصيب أسقف لاتيني لكنيسة الناصرة والتي بها الأماكن المقدسة وكنيسة البشارة، ولم يكن هناك تعارض بين ما قام به جبلين والنظام الأرثوذكسي القديم، فقد كان للمدينة أسقف يتبع البطريرك مباشرة غير أن المعارضة جاءت من قبل مقدم جبل طابور اللاتيني. الذي كان يزعم لنفسه مكانة أسقفية نتيجة حصوله على اختصاصات أسقف من قبل البابا باسكال الثاني سنة 1107م [5] وتسلم أول أسقف لاتيني للناصرة مهام منصبة كما تبين الوثائق سنة 1109م، وامتد نفوذه على كل الجليل [6] .

ويمكن تفسير اهتمام جبلين ببيت لحم والناصرة في ضوء إحساس الصليبيين بأهمية أن تكون مثل تلك الأماكن التي تحوي الأضرحة الكبيرة للمسيحية ضمن الهيئة الكنسية، وألا تكون مهملة الشأن.

ولقد أراد جبلين نشر النظام الأوغسطيني، وإقامة أساقفة لاتين في المدن الساحلية التابعة للمملكة، وكانت مدينة عكا بيد الصليبيين منذ سنة 1104م، ورغم أهميتها فإنها لم ترق إلى أسقفية. وقد قام بلدوين الأول في سنة 1110م بالاستيلاء على مدينتي بيروت وصيدا، وتمثل المدينتان جزءًا من إقليم صور الذي يتبع بطريركية أنطاكية حسب النظام الأرثوذكسي القديم، غير أن جبلين، وبتأييد من الملك بلدوين، أراد ضم الميناءين إلى نفوذه الكنسي. ويرجع موقف بلدوين إلى

رغبته في أن تكون المناطق التابعة لسيطرته تابعة لبطريركيته، وكان مبرر جبلين في ضم المدينتين هو أن خمسة قرون من التواجد الإسلامي كفيلة بإحداث فوضي في التقسيم الكنسي القديم [7].

وقد أخذت البابوية جانب بيت المقدس في البداية، حيث قرر البابا باسكال الثاني ضرورة ضم كل ما يفتحه بلدوين الأول إلى بطريركية القدس. وكان لاحتجاج بطريرك أنطاكية الشديد وإعرابه عن خشيته من ضياع بيروت وكل إقليم صور من عرشه إن تراجعت البابوية عن قرارها [8]. ولدينا مجموعة الرسائل المتبادلة بين البابوية وبطريركيتي بيت المقدس وإنطاكية في هذا الشأن. وتعكس تمسك كل طرف في مواجهة الأخر بمد نفوذه على إقليم صور.

ولقد كان إقليم صور جديرًا بأن يثير ذلك النزاع، فهو (أي إقليم صور) "مطرانية كل فينقيا والتي تحتل دومًا المرتبة الأولى بين أقاليم سوريا، إما بسبب غناه المبارك الوصف أو كثرة سكانه [9]. ولقد ظلت المشكلة حول إقليم صور معلقة حتى بعد وفاة جبلين، بيد أن ذلك لا ينتقص من دوره شيئًا، فإن ماقام به كان له أثره فيما بعد حول التنظيم الكنسي في الإقليم.

لم يحدث تقدم كبير في أمر التنظيم الكنسي خلال بطريركية أرنولف (11121118م)، وذلك رغم أنه كان على وفاق مع الملك بلدوين الأول، وقد أمكن لأرنولف بمساندة بلدوين الأول فرض النظام الأوغسطيني على الرهبان الكنسيين بالضريح المقدس [10].

ولقد تمت في عهد جرموند (11181128م) قليل من الإجراءات بشأن التنظيم الكنسي. وظل تنظيم الكنيسة في عهده دون اكتمال. غير أنه استطاع فرض النظام الأوغسطيني في الخليل بعد اكتشاف رفات كل من إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام تحت أسوار كنيستها سنة 1119 [11].

وكان لتقاعس جرموند عن أداء واجباته الدينية أثره في عدم اكتمال النظام الكنسي. فقد وعد برئاسة حفل نقل رفات الأنبياء الثلاثة إلى داخل الكنيسة، ورغم ذلك لم يفعل شيئًا [12].

واستمر النزاع حول صور في عهد جرموند، وبرغم أن المدينة كانت لا تزال بحوزة المسلمين فإنه قام بتعيين أودو ODO في سنة 1122م رئيس أساقفة لها. ويمكن أن يفسر ذلك المسلك من جانبه بأنه محاولة لتأكيد نفوذه على الإقليم، إلا أن أودو مات قبل الاستيلاء على المدينة. ولم يقم جرموند بتعيين غيره إلا حوالي سنة 1127م، فقد كرس وليم الذي كان مقدمًا بالضريح لذلك النصب، وكان النصر حليف جرموند بقبول البابوية تبعية صور لبطريركية بيت المقدس [13].

ورقيت في عهد جرموند أسقفية الناصرة إلى رئاسة أسقفية وصارت مطرانية الخليل وتم ذلك في نهاية عهده أي سنة 1128م [14].وحدث قليل من التطور في تنظيم الكنيسة في بداية بطريركية ستيفن الشارتري (1128-1130م)، فقد أمكن له إنشاء أسقفية في سبسطية رغم قلة عدد سكانها وذلك لأن بها مدفن القديس يوحنا المعمدان. وقد كانت تلك الأسقفية تابعة لرئاسة أساقفة قيسارية وأنشئت حوالي سنة 1129م.

ويبدو أن ذلك تم نتيجة التعاون الذي كان بين البطريرك ستفن والملك بلدوين، إلا أن التعاون بينها كان قصير الأجل فقد دب الخلاف بينهما سريعًا مما كان له أثره على مواصلة مسيرة التنظيم الكنسي.وفي بطريركية وليم الأول (1130-1145م) نجد تنظيما لأوضاع الأسقفيات والمدن الساحلية ففي سنة 1133م أقيم الأسقف بلدوين بكنيسة بيروت وتم تكريس أسقف لاتيني لصيدا، واستقبلت عكا أول أسقف لاتيني لها في سنة 1135م رغم استيلاء الصليبيين عليها منذ سنة 1104م [15].

ويمكن القول؛ أن التنظيم الكنسي اللاتيني كان عملاً بطيئًا وارتبط إلى حد كبير بفتوحات المملكة وتوسعاتها، لقد كان التنظيم في الأساس عملاً سياسيًا أكثر منه احتياجًا رعويًا.وبالفعل فإن التنظيم لم يستقر ويتحدد شكله النهائي إلا قبل عقد تقريبًا من سقوط المملكة على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م. ولقد كانت بتراء ثالث الكنائس المطرانية التابعة للقدس في النظام الأرثوذكسي القديم، وقام أمالريك Amalric بطريرك بيت المقدس بتعيين جويركوسGuerricus أحد رهبان معبد الرب أول أسقف لبتراء بينما تم تعيين رينالد ابن أخت البطريرك فوشيه بطريرك بيت المقدس أسقفًا للخليل [16].

لقد اتخذ التنظيم شكله النهائي من خلال أربع مناطق كنسية على قمتهم بطريركية القدس ويتبعها رئاسات أسقفية الناصرة، صور، بتراء، بالإضافة إلى أسقفيات تتبع البطريرك مباشرة هي أسقفية (اللد والرملة)، أسقفية بيت لحم وأسقفية الخليل.وقد دعم ذلك الهيكل الكنسي انتشار العديد من الأبرشيات ذات الشعائر اللاتينية على مدى مناطق المملكة. ومن خلال تلك الأبرشيات أمكن للكنيسة ممارسة واجباتها الرعوية المختلفة. غير أن السواد الأعظم من الجماهير الصليبية قد عاش داخل أسوار المدن أو القلاع [17].

وبعكس الأسقفيات لم تكن هناك أهمية كبري للحدود الرسمية بين الأبرشيات. وقد انتشرت تلك الأبرشيات في المدن والمناطق الريفية. وكان لحجم المدينة وعدد سكانها أثره في مكانة الأبرشية وأهميتها، وبصورة عامة كانت أبرشيات المناطق الريفية أقل شأنًا من أبرشيات المدن، ويرجع ذلك إلى أن المناطق الريفية كانت قليلة السكان، وتشمل إلى جانب اللاتين مسلمين ومسيحيين شرقيين.

وكان لتلك الأبرشيات دورها في خدمة اللاتين وفقًا للشعائر اللاتينية، وتجدر الإشارة إلى أنها لم تكن أماكن للعبادة فقط وإنما عملت على تقديم كافة الخدمات التي احتاجها المسيحي اللاتيني في نواحي عدة من حياته كالعماد والزواج

وغيره [18].لقد كانت الكنائس الكبيرة والكاتدرائيات في المدن والأبرشيات في البلدات الصغيرة والقرى صورة لنظام كنسي لاتيني غربي فوق أرض الشرق.

2. المنشآت الكنسية

ورافق التنظيم الكنسي في مراحله المختلفة اهتمامًا كبيرًا بتشييد الكنائس أو إعادة بناء وترميم القائم منها من قبل. ولم يكن مستغربًا أن يلجأ الصليبيون إلى تشييد الكنائس بالأرض المقدسة رغم وجود العديد منها، ويرجع ذلك إلى ما كان يجتاح أوربا في تلك الفترة من حماسة دينية جارفة، وقد انتقلت تلك الحماسة مع الصليبيين، كذلك فإنه لسبب أو لآخر تعرضت بعض الكنائس للتهدم [19].

وكان طبيعيًا أن يتجه اهتمام الفرنجة الأكبر نحو كنيسة الضريح المقدس لأنها أكبر وأهم الكنائس بالمدينة المقدسة. وقد وجد الصليبيون الجانب الشرقي من كنيسة الضريح المقدس عند مقدمهم مهدمًا، فقاموا بإعادة بنائها، وصارت في الحال كاتدرائية للبطريرك اللاتيني وألحق بها جماعة الرهبان الكنسيين. ويذكر وليم الصوري أن اللاتين قاموا بتوسيع الكنيسة الأصلية [20].

لقد قاموا بإضافات وأيضًا ببعض أعمال الترميم مثل إنشاء جناح ملحق بالقاعة الرئيسية المستديرة Routundaومنحه للجوقة. وتمت تلك الإضافات على الطراز الروماني الغربي. وانتهي العمل الذي استمر خمسين عامًا في يوم الخامس عشر من يونيهسنة 1149م في الذكرى الخمسين لغزو المدينة المقدسة [21].

ويعطينا يوحنا وورزبرج صورة للمبني بعد اكتماله بعدد من السنوات وكيفية الزيارة والخدمة القائمة على حراسته فيذكر أنه مبني دائري الشكل زخرف بالفسيفساء وفي مدخله الشرقي توجد غرفة انتظار، بها بابان من خلال أحدهما يمكن للأشخاص الدخول إلى الضريح، ومن الآخر يخرجون.

كما توجد بتلك الغرفة جماعة حراس الضريح ويوجد بها أيضًا باب ثالث صغير يقود إلى الجوقة. وخارج المبني أي على قمة الضريح، يوجد مذبح بنيت فوقه مظلة مربعة ذات ثلاث حوائط من حديد مشغول في تكوين جميل. ويعرف بمذبح

الضريح المقدس [22]. ويذكر بنفيستي أن الخطوط العامة للكنيسة لا تزال باقية إلى اليوم [23].

وقد لجأ الفرنجة إلى تحويل المساجد إلى كنائس في أكثر من مدينة مع ما في ذلك من دلالة تعصب واضحة. ففي مدينة القدس قاموا بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة وبنوا شمالها ديرًا وأطلقوا عليها معبد الرب Templum Domini، ولجأ الصليبيون إلى تغيير معالم الجامع.

ولدينا وصف ثيودريك للهيكل، فيذكر أن الهيكل نفسه كان على شكل مثمن في جزئه الجنوبي، وقد زخرف ذلك الجزء حتى منتصف الهيكل برخام فخيم، ومن المنتصف إلى الكنار زخرف بأعمال الفسيفساء، وفي داخل ذلك الكنار وحول الهيكل بأكمله باتجاه من الشرق إلى الغرب مع مسار الشمس كتبت نقوش أولها: "السلام يكون لذلك البيت إلى الأبد، من الآب الخالد"، وعلى الجانب الثاني "مقدس هيكل الرب" ويمضي ثيودريك في ذكر باقي النقوش حتى الجانب الثامن وفيه كتبت "بيت الرب بُني جيدًا على صخرة ثابتة".

وقام الفرنجة بإقامة عدد من المذابح، ويبدو أن الهيكل استخدم في بعض الواجبات الرعوية مثل العماد. فقد أقاموا به أيضًا أماكن للتعميد في الفناء[24]، وقد اعتلى قبة الجامع صليب ضخم، بيد أن تلك الإضافات أزيلت بأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي عند دخول المسلمين القدس [25]. وأنشئت في القدس أيضًا كنائس عديدة منها كنيسة القديسة مريم اللاتينية سنة 1103م، والقديسة مريم العظيمة سنة 1140م، وفي نفس العام أنشئت كنيسة القديسة آن بمساعدة العائلة الملكية وكانت ايفيت Ivetteابنة بلدوين الثاني وأخت الملكة مليسند Melisende راهبة من راهبات دير القديسة آن حتى سنة 1144م [26].

وكانت حركة التشييد قائمة على قدم وساق خارج القدس، وفي المدن الأخرى التابعة للمملكة، ففي مدينة بيت لحم قام الصليبيون ببناء دير يعمل وفق النظام الأوغسطيني ورفعت كنيسة بيت لحم إلى كاتدرائية. وكان طبيعيًا أن تمتد

إليها يد التجميل والزخرفة بتصميمات من الفسيفساء لا تزال تجمل الحوائط المحيطة بصحن الكنيسة وجناحها1160م [27].

وقد تأثروا في أعمالهم بالفن البيزنطي، وكان ذلك في سنة 1160م [28].ومن الواضح؛ أن سياسة الصليبيين تواصلت في مجال تحويل المساجد، ففي الخليل مدينة الأنبياء، والتي استولى عليها الصليبيون بعد قليل من استيلائهم على القدس تم تحويل الجامع الإبراهيمي إلى كنيسة [29].

كذلك كان الوضع في مدينة نابلس، فبالإضافة إلى الكنائس العديدة التي أقامها الاسبتارية تحول جامع النصر إلى كنيسة تتبع الضريح المقدس. ومن بين الكنائس التي شُيدت هناك كنيسة الآلام والقيام The Passiom and Resurrection وقد بُنيت في سنة 1168م، حيث قام رهبان الضريح المقدس ببنائها بموافقة الملك عموري. كما قام الفرنجة بإعادة الحياة إلى الكنيسة البيزنطية القديمة، وأضافوا إليها بعض التجديدات [30].

وفي الناصرة أعاد الصليبيون بناء كنيسة البشارة، وذلك في حوالي الوقت الذي رقيت فيه إلى رئاسة أسقفية أي سنة 1128م، ويبدو أن ذلك التجديد محاولة لجعل الكنيسة على المستوي اللائق بمكانتها التاريخية والتنظيمية. كذلك أعاد الصليبيون بناء كنيسة اللد، وكانت قد تهدمت، وأضافوا إليها ديرًا [31].

لقد انتشرت الكنائس في كل أنحاء المملكة، وأعيد الحياة إلى كثير من المتبقي منها، وعلى الرغم من عدم وجود كنيستين متشابهتين ضمن ما استحدثه الصليبيون من كنائس، إلا أنه توجد بين تلك الكنائس ملامح مشتركة.شيدت الكنائس الصليبية من الداخل على النمط الملكي البازيلكي Basillican وفيه صحن الكنيسة الرئيس محاطًا من جانبه بجناح كنسي. ويستثني من ذلك كنيسة الضريح المقدس وكنيسة بيت لحم، رغم أن الأخيرة كانت على الطراز البازيلكي فقد كان بها جناحين على جانبي صحن الكنيسة [32].

وكانت الكاتدرائيات أكثر حظًا في مقاومة الزمن والبقاء إلى اليوم وذلك لصلابتها وقوة بنائها، بينما تعرضت الكنائس والأبرشيات الصغيرة للاندثار. ويعطينا Smail قائمة تحوي مصير تلك الكاتدرائيات التي أمكن لها البقاء ويذكر جبيل والضريح المقدس ضمن تلك الكنائس [33].

وكان لاهتمام الفرنجة بأعمال الزخرفة والتصوير أثره الواضح على الكناس التي شادوها، لقد رسموا اللوحات الجصية والفسيفساء ووضعوا بالكنائس تماثيل بالحجم الطبيعي للمسيح والقديسين، كما نقشوا كتابات من الإنجيل، وبدا واضحًا تأثر الفرنجة بالفن البيزنطي، وربما قاموا بالاستعانة بالفنانين البيزنطيين [34].

3. ثروات الكنيسة ومصادر الدخل

وكان طبيعيًا أن يكون وراء ذلك التنظيم الكنسي الكبير وحركة الإنشاء والتجديد والترميم في أنحاء المملكة اللاتينية مصادر تمويل كافية، لقد كان ضروريًا بالفعل وجود أكثر من مصدر لتوفير المال اللازم.وبدايةً نجد أحد الحلول لتلك المشكلة متمثلاً في حقوق السيادة النسبية على المناطق التابعة للأسقفية، كما حدث في منطقة أسقفية اللد، حيث تم تعيين الأسقف روبرت الرويني Robert of Rouen أسقفا لها سنة 1099م، ومنحه مدينتي اللد والرملة والمناطق المحيطة بهما [35].

وكان المصدر الثاني المتاح للتمويل هو تحويل الأوقاف الأرثوذكسية للأسقفيات اللاتينية التي أقيمت محلها. غير أن ذلك الإجراء كان صعب التنفيذ، فقد كان من الضروري معرفة وتحديد تلك الأوقاف. ففي مدينة القدس لم يكن الأمر هينًا فقد رحل البطريرك الأرثوذكسي قبل ثمانية أعوام في صحبة رهبانه، وذلك قبل استيلاء الصليبيين على المدينة. وكان الأمر أكثر صعوبة في الأسقفيات التي استحدثها اللاتين فلم يكن لها أوقافًا. وفي مثل تلك الأحوال فإن أمراء الفرنجة كانوا مضطرين لمنحها أوقافًا جديدة وبيت لحم مثال لتلك الأسقفيات، فقد منحها الملك بلدوين الأول أوقافًا في الجوار وفي مدينة عكا ومنطقة عسقلان [36].

وكانت الهبات التي تتلقاها الكنائس أفضل مصادر توفير المال، ولأن بعض الكنائس والأديرة كان لها نصيب كبير من الشهرة، فإن نصيبها كان أكثر من الباقيات. وفي هذا الشأن كانت كنيسة الضريح المقدس أهم وأغنى الكنائس فقد حصلت على أراض داخل المملكة، وفي الأمارات الصليبية الأخرى،وأكثر من ذلك في كل أنحاء أوربا الغربية [37].

وإذا كانت بيت لحم والضريح المقدس قد فازا بنصيب الأسد في مجال الهبات، فإن كاتدرائيات أخرى لم تكن تملك أكثر من حدود أسقفيتها. فقد كانت الناصرة – وهي من الأماكن الهامة – لا تمتلك سوى ضياعًا قليلة شرق الجليل، وكان الموقف مشابها في الكاتدرائيات الأخرى ففيما عدا المقاطعة التي تتبع أسقفيتها لم تكن تملك شيئًا كثيرًا [38].

فقد حازت كنيسة صؤر أملاكا هناك، وكانت باقي الكنائس تمتلك الضياع بصفة هبات خارج الكنيسة. لقد كان عزاء الكنيسة اللاتينية في مملكة بيت المقدس عن ضياع القدس تلك الهبات التي كانت لها في عكا والأراضي الجديدة في قبرس وحتى بولندا.

ومهما يكن من أمر؛فإن الهبات بصفة عامة كانت كثيرة، وتشمل بالإضافة وإلي الأرض أشياء أخري مثل الزيوت والخمور مثل الزيوت والخمور والمصابيح والقناديل، بالإضافة إلى الممتلكات الشخصية وكان يوصي بها بعد الموت لبعض الكنائس في مقابل الصلوات والدعوات للراحل أو للمانح نفسه [39].

وكانت هبات الحجاج في مواسم الحج واحدة من دلائل التقوى، ومصدرًا من دخل الكنيسة، بل أنها كانت مصدرًا من مصادر دخل المملكة ذاتها، ففي كل عام يقدم الحجاج من الغرب والشرق للمشاركة في الأعياد والاحتفالات الدينية ويمضون الصيف في الأراضي المقدسة، ولقد كان للضرائب التي يدفعونها والمال الذي ينفقونه أثره على اقتصاد المملكة وماليتها [40].

وإذا كانت الصلوات والدعوات أو التقوى دوافع وراء المنح والهبات، فإننا نجد بعض المفاسد في مسلك البعض من رجال الكنيسة تجاه تلك المنح والهبات. فقد كان المفروض كما هو متفق عليه أن يتم تقسيم دخل كل الكنيسة بين الأسقف وأعضاء الكنيسة إلا أنه حدثت بعض التجاوزات في ذلك الصدد، ففي خريف سنة 1101م تلقي البطريرك دايمبرت هدية من روجر أمير أبوليا مقدارها ألف بيزنت على أن تقسم ثلاثة أقسام جزء للقبر المقدس، وجزء للمستشفي والثالث للملك للمساهمة في إعداد الجيش، غير أن دايمبرت احتفظ لنفسه بالمال كله مع ما في ذلك من غبن لحقوق من نص عليهما المانح [41].

وقد جلب ذلك المسلك السيئ على أصحابه كراهية العامة من أبناء المملكة، فقد كان أرنولف أقل شعبية نتيجة لاهتمامه بأمور عائلته واستخدامه لثروة الكنيسة في ذلك الشأن. فقد رتب زواج ابنة أخته أيماEmma من لورد قيسارية وصيدا يوستاكجارنير، ومنحها أريحا دوطة لها، وكانت تتبع كنيسة القدس [42].

وتذكر أحد الحوليات الكثير من المفاسد الكنسية الناجمة عن استغلال المنح والهبات استغلالاًسيئًا، فتعطينا صورة لحياة فاضحة مليئة بالسكر والمفاسد والانحلال والأعمال المخزية [43].

ولقد كان للكنيسة بالإضافة إلى ماسبق من مصادر للدخل، مصدر أخير وهو العشور. وكانت العشور ضريبة كنسية تفرض على كل مصادر الدخل، ويعني ذلك أنها كانت مفروضة على التجارة والصناعة وكل عوائد الأنشطة المختلفة. وكان المصدر الرئيس والدائم للعشور هو الإنتاج الزراعي، وكان مالك الأرض مسئول عن دفعها، كما أنها مقررة على المسيحيين اللاتين، وقد أعفي منها المسيحيين الشرقيين لأن مثل تلك الضريبة لم تكن معروفة في الشرق [44].

ولقد واجهت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بعض المشاكل والصعوبات بشأن تلك الضريبة، أول تلك المشاكل أن الأسقف لا يتلقى عشورًا عن الأراضي التي تملكها كنيسته وتقع في منطقة غير أسقفيته، فعندما

وافقت الملكة ميلسند على أن تتم مبادلة أملاك البطريرك ورهبان الضريح المقدس والتي توجد في منطقة كفر تقوع Thecua بتلك التي في بيثانيBethany فإنهم اضطروا لدفع العشور عن أرض بيثاني للأسقف في بيت لحم، في الوقت الذي لم يتلقوا عشورًا من كفر تقوع [45].

وقد سمحت الكنيسة لبعض الجماعات الدينية ببعض الإعفاءات المحدودة من أداء ضريبة العشور في منطقة القدس. وفعل برنارد أسقف الناصرة نفس الشيء فقام بإعطاءالأسبتاريةامتياز مشابه في أسقفيته سنة1125 م. كما تم إعفاء بعض الأديرة من تلك الضرائب إعفاءً محدودًا [46].

وعلي الرغم من أهمية العشور في تدعيم الهيكل الكنسي اللاتيني، إلا أن الكنيسة رغبة منها في تدعيم الجماعات الدينية لتأخذ دورها على أرض المملكة تساهلت إلى حد ما بمنح الإعفاءات المحدودة، وخير دليل على ذلك أنه في حالة قيام أي جماعة دينية بإنشاء كنيسة على أرضها وبتكلفة منها فإنه تثار مشكلة العشور، وهل تدفع للأسقف أم للكنيسة الجديدة، وغالبًا ما تترك لكنيسة الجماعة الدينية.

كما حظيت الكنيسة في مملكة بيت المقدس، وهي أغنى مالك للأراضي في الأرض المقدسة، بإعفاء من كل ماهو مقرر على الأموال والرسوم [47].

4. دور الكنيسة في الحرب

ورغم تلك الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة، فإن ذلك لا يعني أن ممتلكاتها كانت معفاة تمامًا من الالتزامات تجاه الدولة، خاصةً وأن المملكة كانت تواجه أعداء يحيطون بها من كل جانب وخاضت حروبًا كثيرة. ويذكر براور أن مستندًا كُتب في الربع الأخير من القرن الثاني عشر تضمن قائمة من المستعدين للعمل كقوة تكرسها الكنيسة للتاج [48].

وشاركت الكنيسة فعلاً في حروب المملكة، وكان ذلك بتوفير خدمة احتياطية طارئة بحجم معقول من الجند الرجالة لا خدمات الفرسان نظرًا لارتفاع تكلفة الفارس. ولقد التزم البطريرك والرهبان الكنسيين بكنيسة القيامة بتقديم

خمسمائة جندي، بينما التزم أسقف بيت لحم بتقديم مائتي جندي، كذلك التزم رئيس أساقفة صور بتقديم مائة وخمسين جندي، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض الأديرة مثل دير القديسة ماري يوشيفاط ودير جبل صهيون [49].

وعلى الرغم من تكلفة الفارس الباهظة؛ فإن ذلك لم يمنع بعض الكنائس في المملكة من تقديم تلك الخدمة، فقد قامت بذلك كنيستا "اللد والرملة" والناصرة. ففي أسقفية اللد –الرملة كانت الكنيسة ملزمة بتقديم عشرة فرسان لإمرة التاج، وكانت أسقفية الناصرة ملزمة بتقديم ستة فرسان للملك ويرجع ذلك إلى ما حصلت عليه هاتان الأسقفيتان من ميزات خاصة، فقد حصلت كل منهما – كما سبق القول – على إقطاع [50].

غير أن المشاركة الكنسية في حروب المملكة لم تتوقف عند هذا الحد، لقد ساهم البطاركة أنفسهم وبصورة فعالة في حروب المملكة، وشاركوا في أعمال الحصار والمعسكرات، وأظهر بعضهم قدرات في ميدان القتال، بينما كان لمشاركة البعض منهم أثرها في رفع روح القتال لدي المحاربين.

ويخبرنا المؤرخ المجهول حول دور البطريرك في الإعداد للحرب وتجهيز الجند وتهيئتهم للقتال قبل معركة عسقلان، والتي جرت في الثاني عشر من أغسطس سنة 1099م فيقول "عندما حل المساء، نادي البطريرك في الجميع مطالبًا بضرورة الاستعداد في الصباح الباكر للمعركة، كذلك قام بإصدار قرار بالحرمان ضد كل من يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة [51].

وشارك رجال الدين في اجتماعات الحرب لمناقشة أمور القتال بل والمشاركة في القتال ذاته، يروي لنا شاهد عيان أحد تلك الاجتماعات "لقد عقد البطريرك والأساقفة وباقي الزعماء اجتماعًا عند النهر في ناحية عسقلان، وهناك استولوا على عدد من الحيوانات والثيران والجمال والماشية وغنائم أخرى".

لقد قامت الكنيسة منذ نشأتها في المملكة المقدسة بدورها في ميدان القتال برعاية المحاربين، إلا أنه خلال بطريركية دايمبرت حدثت بعض التجاوزات. فقد

ألح الملك بلدوين الأول عليه في طلب منحة من هبات المؤمنين لتمويل الفرسان وجمع فرق جديدة في حربه ضد الجيش المصري (يوليه 1101م)، ورغم حاجة بلدوين الأول للمال فإن البطريرك سمح له بمائتي مارك من الفضة فقط، وأقسم أن ذلك كل ما تحويه خزانة الكنيسة[52].

ويبدو أن ذلك القسم كان باطلاً، فقد كشف خدم دايمبرت بعد رحيله إلى أنطاكية عن مخبأ الكنز الذي كان يحتوي على عشرين ألف بيزنت من الذهب. ولقد قام الملك بتقسيم ذلك المبلغ بين جنده وزاد لهم في الحد، فقد كان يعد لهجوم جديد على الفاطميين[53].

وتجدر الإشارة إلى؛أن ذلك البطريرك والذي لم يساند بلدوين الأول إلى الحد الذي كان بإمكانه القيام به، فعل ذلك نتيجة ما بينه وبين بلدوين من خلاف. والغريب أن نجده يشارك أمير أنطاكية وبطريرطها برنارد الفالنسي، ورئيس أساقفة الرها بندكت في معركة حران سنة 1104[54]، ويرجع ذلك إلى العلاقة القوية التي كانت تربطه بأمير أنطاكية وإيوائه له بها عندما خرج من القدس.

وحرص البطاركة على إثارة حمية المقاتلين، ويتم ذلك من خلال لقاء بين البطريرك والجنود. وفي اللقاء يمضي البطريرك بين صفوف الجند حاملاً الصليب المقدس ليحمي المقاتلين الذين على وشك الذهاب إلى الميدان، ولدينا صورة لما قام به البطريرك ايفرمار قبل بدء معركة لبلدوين مع الجيش المصري: فقد لبس البطريرك عباءته وأخذ بيديه الصليب الذي كان يحمل دومًا في مثل تلك المناسبات بعد كلمة ذكر فيها الجند بأعمال المسيح، طالبهم أن يقاتلوا بشراسة من أجل أسمه، ثم اندفع الجند إلى ميدان القتال بحماسة.

وكان البطاركة يمضون على رأس المقاتلين إلى ساحات القتال، فلقد شارك البطريرك جبلين – رغم كبر سنه – في حملة ضد مودود أتابك الموصل، وذلك أثناء رحلة طويلة مع فرقة ملكية سنة 1110م، وكان يحمل الصليب في مقدمة الجموع[55].

وكان البطريرك جرموند أكثر مقدرة وخبرة في ميدان القتال، ولم يكن يتوقع من رجل الدين أن يضطلع بمهام مثل التي اضطلع بها جرموند، وأبرز من خلالها مواهب عسكرية ذات شأن. فقد شارك جرموند مع الملك في حملة ضد مدينة دمشق في بداية عهده(56).

وكان لما قام به جرموند في "صور" أثره في اتساع رقعة المملكة اللاتينية فقد رتب البطريرك والنبلاء بالمملكة مع البنادقة الذهاب إلى صور وحصارها. وبالفعل قام البطريرك ومعه كل أتباعه بحصار صور في السادس عشر من فبراير سنة 1124م، وكان الملك بلدوين الثاني في الأسر في ذلك الوقت.

وقد طال حصار صور، ويذكر ابن ميسر أن الفرنج ملكوا صور بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم فأغاثهم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق، ووصل إلى بانياس وراسل الإفرنج فوقع الاتفاق على أن يتسلموها بالأمان(57).

وتعددت مساهمات جرموند الحربية، فقام بحصار لحصن كان بحوزة جماعة من قطاع الطرق في منطقة صيدا، يسمي بلتسامBelthasem ولكنها كانت المساهمة الأخيرة، فقد "تعرض لعدوى مميتة، وأصيب بأمراض خطيرة(58).

كذلك فقد شارك وليم بطريرك بيت المقدس في حصار بانياس، ويبدو أنه كان حريصًا على ممارسة واجباته الرعوية أثناء القتال فقد "ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يتلون فيها يتولي خدمتها شيخ شماس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش(59).

ويبدو أن البطاركة كانوا مضطرين إلى حمل الصليب المقدس لما له من أهمية كذخيرة مقدسة في الحرب. ولميكن مسموحًا لأحد من صغار رجال الدين بانجاز مثل تلك المهمة، وفي حالة غياب البطريرك يمكن لأي أسقف أن يؤدي ذلك العمل، مثلما فعل إيفرمار، وكان في ذلك الوقت رئيس أساقفة قيسارية فنجده يسعي لرفع روح القتال بحمل – ما يعتقد – أنه الصليب الحقيقي أثناء معركة تل دانيت Tell Danithفي سنة 1119م(60).

وتجدر الإشارة هنا إلى؛أن هناك مَن لم يشارك من البطاركة في حمل الصليب، فلم يقم كل من أمالريك أو هرقل بتلك المهمة[61].ولقد شارك بعض رجال الدين في أعمال القتال الفعلي، ورغم ما يثيره هاملتون في هذا الصدد من جدل حول قوانين الكنيسة في الغرب والتي تمنع الرهبان والأساقفة والقسس من سفك الدماء. فإننا نجد أساقفة يقومون بأعمال قتالية ويصاحبون الجيوش في وقت لم يكونوا مضطرين فيه لذلك، مثلما فعل بلدوين أسقف قيسارية. وجيرارد مقدم طابور وذلك في معركة الرملة سنة 1101م[62].

لقد اهتم رجال الدين على كافة المستويات بحروب المملكة، ويعكس ذلك الاهتمام من جانب الكنيسة بناحية من نواحي الحياة لأبناء المملكة اللاتينية صورة خاصةً لواحد من أهم أدوار الكنيسة اللاتينية في المملكة، ولم تنس الكنيسة أن الصليبية فعلة كنسية.

5. الواجبات الرعوية

ومع اهتمام الكنيسة الكبير بالجانب الحربي فإنها لم تهمل واجباتها الروحية التي هي صميم عملها. ولقد كانت الكنائس بالإضافة إلى أعمال العبادة تؤدي واجبها نحو الحجاج. وكانت كنائس المملكة مزارات هامة في مواسم الحج، وتسعي إعداد كبيرة من الحجاج القادمين من كل أنحاء الغرب الأوربي لزيارتها والصلاة بها، خاصةً وأنها المناطق التي شهدت حياة وآلام السيد المسيح. وكان للإيمان والتقوى المنتشران في غرب أوربا في ذلك الوقت أثرهما في زيادة عدد الحجاج القادمين إلى بيت المقدس.

غير أن تلك الظاهرة لم تكن قاصرة على أبناء الغرب الأوربي، فقد شهدت المملكة جماعات الحجاج الشرقيين، وقد سجلت كتاباتهم تجاربهم في الحج والأماكن المقدسة التي زاروها، ولدينا رحلة الأسقف دانييل Daniel، أحد الحجاج الروس الذين زاروا الأرض المقدسة فيما بين سنة107 – 110م، وقد ذكر المزارات المقدسة التي رآها والشخصيات الهامة التي قابلها في العقد الأول من تأسيس المملكة.

واهتمت المملكة من جانبها بتوفير الأمان للحجاج، وباركت الكنيسة ذلك الموقف. فقد كان الطريق الرئيس من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر سهل الرملة محفوف بالمخاطر، لذلك نظم الداوية قوافل مسلحة لحماية الحجاج[63].

ويبدو أن الاهتمام بأمن الحجاج كان شغل الكنيسة الشاغل، ففي أعلى مستويات التنظيم الكنسي نجد البطريرك يشارك هو ومواطني بيت المقدس بالكامل في بناء حصن منيع لتأمين سلامة الحجاج المارين بمنطقة اللد، وذلك في منطقة بيت نوبا[64].

صار الحجاج حقيقة قائمة في حياة المملكة اللاتينية، فمع كل ربيع يقدم إلى المملكة أولئك الذين ينوون الاحتفال بالصوم الكبير في الأماكن المقدسة، وقضاء الصيف هناك.وقد يرجع اهتمام المملكة على وجه العموم بأمن الحجاج وتدبير احتياجاتهم إلى أسباب منها تأمين حركة الحج المتزايدة كل عام، وما تمثله أموال الحجاج التي ينفقونها والضرائب المفروضة عليهم من عنصر هام من عناصر اقتصاد المملكة[65].

واهتم الصليبيون بتوفير كل ما يحتاجه الحجاج، خاصةً وأن من بينهم فقراء كثيرين ربما أنفقوا ما معهم خلال رحلتهم، وكان على الكنيسة أن تقف إلى جانبهم، لذلك فإنه بناء على طلب البطريرك قام بلدوين الثاني برفع الضريبة التي كانت تؤخذ منهم، وكان يعاني منها الفقراء من الحجاج على أبواب القدس[66].

كما عملت المملكة على توفير الخدمات العلاجية للحجاج وذلك من خلال المستشفيات، ولا يعني مصطلح مستشفي في العصور الوسطي دائمًا مكانًا يتلقي المرضي فيه العلاج الطبي، غير أنه وجدت تحت هذه التسمية في المملكة ما لا يقل عن أربعة أنواع من المؤسسات العلاجية المختلفة، مشفى لعلاج المبرصين، وبيوتات للفقراء من المرضي أو المصابين المعدمين، ودور ضيافة للعجزة من الحجاج، وأبناء السبيل.

كما وجدت في القدس عدة مستشفيات ومستوصفات [67]، وكان لمستشفي القديس يوحنا Hospital of St. John الدور الأكبر في العناية بالحجاج عامة والفقراء منهم بصفة خاصة، وكما سبقت الإشارة كانت تلك المستشفي تعمل قبل قدوم الصليبيين حيث كانت تقدم نفس الخدمات في المدينة المقدسة للحجاج اللاتين، بيد أنه وفي حماية ملوك بيت المقدس نمت تلك المستشفي وتعددت خدماتها، وتفرعت منها مستشفيات أخرى في أنحاء المملكة [68].

وقد ظل المستشفي الرئيسي في القدس صاحب الدور الأكبر في ميدان خدمة الحجاج، وذكر أحد الحجاج ذلك الدور بقوله: "كان يتجمع في المستشفي الملحقة بكنيسة القديس يوحنا المعمدان وفي حجراتها المتعددة عدد كبير من المرضي، رجال ونساء، وأيضًا ناقهين يتماثلون للشفاء ... وعلمت أن عددهم يبلغ حوالى الألفين" [69].

ولا يعني ذلك أن مستشفي القديس يوحنا الوحيدة في ذلك المضمار، فقد قامت إلى جانبها مستشفيات أخرى،أسسها أفراد من ذوي التقوى، أو جماعات دينية مثل المستشفي الملحق بدير ماري يوشفاط، ومستشفي خدمة الحجاج في ميناء عكا[70]، كذلك فقد قام رهبان الضريح المقدس بإنشاءمستشفي لخدمة الحجاج بجوار الضريح وذلك بعد سنة 1099.

وكانت تلك العناية بالحجاج من جانب الدولة والكنيسة من عوامل جذب الحجاج وزيادة إعدادهم، إلا أن مشاركة الحجاج ومتابعتهم للاحتفالات الدينية أو الرسمية يعد عامل آخر لجذب الحجاج إلى مملكة بيت المقدس. فقد كان لتلك الاحتفالات وقع خاص في نفوسهم، بالإضافة إلى أن إجراءات الاحتفالات كانت تتم في أماكنها الطبيعية، وكما وردت في القصص الإنجيلية[71].

وقد تعددت الاحتفالات والأعياد الدينية في المملكة، ويرجع ذلك إلى ماتحفل به المدينة المقدسة من ذكريات ومناسبات دينية خاصة بها، بيد أن أهم تلك الأعياد كان عيد الخامس عشر من يوليه، ففيه تحتفل المملكة بمناسبتين هامتين من

تاريخها، الأولى ذكرى الاستيلاء على المدينة المقدسة، والثانية إعادة تجديد كنيسة الضريح المقدس وتكريسها للخدمة، ولم يتم ذلك الاحتفال واعتباره عيدًا من أعياد المملكة إلا بعد خمسين عامًا من تواجد الصليبيين بالأراضي المقدسة.

وكانت وقائع ذلك الاحتفال تجري في أماكنها الطبيعية، ويبدأ بموكب مهيب يتقدمه البطريرك، ومع الصباح الباكر يعبر الموكب من كنيسة الضريح المقدس إلى معبد الرب ويتوقف الموكب عند المدخل الجنوبي للصلاة والترتيل، وبعد ذلك يشق طريقه إلى المكان الذي سقط فيه قتلىالفرنجة.

ويقع ذلك المكان عند الجزء الشمالي من أسوار المدينة في الزاوية الشمالية الشرقية حيث يوجد صليب يحدد الموقع الذي اخترق منه أتباع جودفري المدينة المقدسة. وفي ذلك الموقع يقام قداس يرأسه البطريرك ويشهده رجال الدين والعامة، وتقام صلوات الشكر احتفالاً بتلك الذكرى [72].

ويقدم لنا يوحنا قس ورزبورج جانبًا من ذلك الاحتفال، وصورة لشكله ومراحله وسجلاً للصلاة والتراتيل المقامة في تلك المناسبة [73].وكان للأعياد الدينية ذات الطقوس الخاصة وقع كبير في نفوس المحتفلين من الحجاج أو المقيمين بالمملكة، وفيما عدا عيد الميلاد الذي كان طبيعيا أن يقام في كنيسة المهد ببيت لحم، فإن كل الاحتفالات كانت تبدأ من كنيسة الضريح المقدس وتنتهي في موقع الأحداث التي تمت فيها مناسبة تلك الأعياد [74].

وكان البطريرك يرأس كل الاحتفالات بنفسه، ولعل مرجع ذلك إلى عدم وجود كرادلة يفوض لهم الأمر[75].ولقد كانت تلك الاحتفالات تتعرض لما يعكر صفوها، فتقع خلالها بعض المنازعات والمشاجرات، كما أن المحتفلين أنفسهم لم يكونوا دومًا متوافقين فيما يقومون به من مظاهر الاحتفال، ولدينا صورة لمثل تلك الأعمال والتي قام بها الاسبتارية بهدف تعكير صفو مثل تلك الاحتفالات، ففي سنة 1155م، وأثناء أداء البطريرك لبعض الشعائر الدينية قام فرسان الهيئة برمي السهام عليه. كما قاموا بدق أجراسهم حتى لايسمع صوت البطريرك فولشر داخل كنيسة القيامة ببيت المقدس[76].

ومهما يكن من أمر؛فإن الأعياد الدينية كان لها بهجتها، رغم كل المنغصات، ومن بين تلك الأعياد "عيد أربعاء الرماد"، ويقع ذلك العيد في أول أيام الصوم الكبير وفيه يترأس البطريرك الاحتفال، وكان الاحتفال يبدأ بمقابلة البطريرك لرهبان الضريح المقدس والأخوة العلمانيين في قاعة الكنيسة، ومع الظهر تدق الأجراس الضخمة داعية الناس إلى قداس في الكنيسة المقامة في موقع الجمجمة Calvary، وينتقل الجميع إلى الضريح المقدس ليلقي البطريرك عظته، وبعد تلقي البركات فإنه يقوم بنثر الرماد فوق رؤوس المجتمعين[77].

وقد احتفل الفرنجة كذلك بعيد العذراء المباركة وتجسد الرب في الهيكل، وكان ذلك الاحتفال يتم في موكب بسيط يبدأ من الضريح المقدس وينتهي في هيكل الرب، وقد حمل المحتفلون القناديل[78].وكان عيد "أحد السعف" من بين الأعياد الهامة التي يمكن لكل رجال الكنيسة في بيت المقدس المشاركة فيها، لما تتطلبه طقوس ذلك العيد من مساهمة الكنسيين بأكملهم. فقبل أن تشرق الشمس كان رجال الكنيسة والبطريرك ورهبان جبل صهيون وجبل الزيتون ومقدم دير ماريا يوشفاط يذهبون إلى بيثاني، وهي على بعد ميل من القدس، ويأخذون معهم كل الذخائر المقدسة، وكان أقدسها ما اعتقد الفرنجة أنه صليب الصلبوت.

وفي ذات الوقت، فإن سكان المدينة يتجمعون في كنيسة القيامة مع رهبان الضريح. وهناك تتم مباركة سعف النخيل وأغصان الزيتون، ويقود رجال الكنيسة الموكب إلى بوابة يوشفاط، وهناك يقابلون الموكب القادم من بيثاني الذي يتقدمه البطريرك ومعه الصليب المقدس.ويتمثل القوم ما فعله السيد المسيح في ذلك اليوم عندما ترك بيثاني ومضي إلى منطقة بيت فاجه Bet Phage وهي مكان في منتصف الطريق بين بيثاني وجبل الزيتون ثم مضي عبر جبل الزيتون إلى مدينة القدس، ودخل عبر البوابة الذهبية وقد فتح بابها عند اقترابه منها تلقائيًا.

ومع قدوم موكب البطريرك، وحسب رواية يوحنا قس ورزبورج فأنه يتقدم بوقار من البوابة الذهبية تلك البوابة التي أغلقت خلف عيسي عليه السلام بعد مروره بها وتفتح البوابة في مهابة للموكب والعامة كلهم – مواطنين أو أغراب – حيث يلقي

البطريرك عظته الاحتفالية إلى الناس عند أقدام جبل الزيتون، وعقب انتهاء القداس يقفل الباب ثانية لمدة عام، ولا يفتح إلى في يوم تعظيم الصليب المقدس[79].

وإذ حرص الفرنجة على أداء الاحتفالات الدينية ذات الذكري الخاصة في مواقعها، فإن ذلك الأمر ينطبق على عيد أو احتفال غسل الأقدام عشية الجمعة الحزينة، وذلك اقتداء بالسيد المسيح عندما غسل أقدام حواريه. وكان الاحتفال المذكور يتم في دير القديسة ماري بجبل صهيون.

وكان المحتفلون حريصون على تقدمة الفقراء في غسل أقدامهم أولاً، وذلك خشية أن يصابوا بالجذام أو المرض الخبيث في أقدامهم، وفي اعتقادهم أن ذلك يحدث خلال الحفل ذاته. وكما هو مقرر فإن الاحتفال يبدأ بعظة البطريرك، ثم رش الزيت المبارك، ثم تأتي الأحواض والمناشف، وقد حملها الرهبان التابعون للضريح المقدس، ويغسلون رؤوس وأقدام الفقراء، ثم يقبلون أيديهم وتوزع الملابس والأحذية[80].

وكان الاحتفال بالجمعة الكبيرة يتم في كنيسة في الموقع الذي يقال أن السيد المسيح صُلب فيه، ويستغرق ذلك الاحتفال يوم الجمعة بأكمله، ويقوم البطريرك ورجال الدين في ذلك اليوم بإقامة القداس والاحتفال[81].

ويعد عيد النار المقدسة Holy Fire أو الضوء المقدس Holy Light من أعظم وأشهر الاحتفالات، وهو عيد خاص بالمدينة المقدسة فعند اقتراب عيد الفصح يتم ترقب الضوء المقدس كالعادة في كل كنائس القدس، وقد توارث اللاتين ذلك الاحتفال عن اليونانيين، وكان ذلك الاحتفال قائمًا منذ عهد شارلمان، وفيه يتم إضاءة واحد من القناديل بالمدينة المقدسة بضوء إلهي كما يؤكد ذلك من شهد الاحتفال.

وتبدأ الاستعدادات للاحتفال بعد صلاة الغروب ليوم الجمعة العظيمة، ففي ذلك اليوم ينظف الضريح المقدس، وتغسل كل المصابيح الموجودة به، وتملأ بالزيت النقي ودون ماء. ثم توضع الفتائل وتترك غير مضاءة. وفي ذات الوقت يتم تنظيف المصابيح والقناديل في كل كنائس القدس[82]، ويمضي دانييل في وصف

مظاهر الاستعداد للاحتفال، ويذكر أنه التقي بالملك بلدوين الأول، وعرف أنه حاج أرثوذكسي شرقي ورحب به وسمح له بوضع مصباحه في ضريح السيد المسيح [83].

وربما هدف دانييل من سرد تلك الرواية لبيان تسامح اتباع الكنيسة اللاتينية مع المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين.وتزدحم الكنيسة صباح يوم السبت المقدس Holy Saturday بجموع مختلفة من الحجاج والأهلين، ومع الساعة الثالثة للنهار يبدأ البطريرك في إدارة القداس مع الرهبان ويكون القداس باللاتينية، ثم يقوم الأرثوذكس اليونانيون بأداء قداسهم باليونانية، ويمضي الاحتفال على نفس النمط حتى التاسعة من اليوم. ويعني ذلك تأخر وصول الضوء المقدس – فيقوم واحد من اليونانيين حسب رواية فوشيه الشارتري بالصياح بصوت مرتفع حسب العرف القديم Kyrie Eleison وتعني يا إلهنا أنزل الرحمة علينا Lord have Mercy upon us ويردد معه الجميع الهتاف [84].

واستمر ذلك الهتاف وتوارثه اللاتين عندما كانوا يديرون ذلك الاحتفال دون الإغريق. وإن كنا نجد هتافًا أضافه اللاتين "ساعدنا يالله" أو "الضريح المقدس".

ومع أصوات المتضرعين فإن البطريرك والأساقفة ينتظرون تلقي النار المقدسة ومعهم باقي رجال الدين، ومعهم الصليب الذي أدمجوا به قطعة خشبية كبيرة يعتقد أنها من الصليب الحقيقي، وكذلك ذخائر القديسين، ويظل الجميع يترقب أن برسل الله ضوء رحمته إلى القناديل المستعدة لاستقباله، ولا توجد ساعة محددة لظهور النار المقدسة ولا مكان أيضا، فقد تأتي في أي ساعة وأي كنيسة. وعند وصول النار المقدسة جرى العرف أن تقدم إلى هيكل الرب قبل أي إنسان، فيما عدا البطريرك الذي يشعل عنده قنديله[85].

لقد كان ذلك الاحتفال قمة احتفالات المملكة، إلا أنه كانت هناك مناسبات احتفالية أخرى،فهناك خميس الصعود Ascdnsionday ويتم الاحتفال بذلك العيد من خلال موكب يمضي إلى جبل الزيتون بعد الصلاة في كنيسة

الضريح المقدس، ويتوجه الموكب إلى كنيسة مقامة في المكان الذي يُعتقد بأن السيد المسيح صعد منه، وتوجد آثار مطبوعة في المكان لقدمي السيد المسيح [86].

واختص اللاتين أنفسهم باحتفال ديني خاص أطلقوا عليه عيد العثور على الصليب المقدس، وكان يتم الاحتفال به داخل الكنيسة المقامة في الموقع الذي عُثر فيه على الصليب.

لقد كانت الأعياد والاحتفالات الدينية كثيرة ومتعددة. وقامت الكنيسة بواجبها من احتفاليات تتمثل في إنشاد وترتيل وطقوس خاصة بكل عيد. كما حرص البطريرك على رئاسة تلك الاحتفالات بنفسه. ومهما يكن من سبب وراء حرصه، فإن تواجده على رأس المحتفلين بل ومشاركة أمراء ونبلاء المملكة في ذلك يعكس مدى اهتمام رجال الدين بالجانب الروحي في حياة المملكة اللاتينية، وفي منطقة تحوي الكثير من المقدسات المسيحية. ويعكس أيضًا محاولة الكنيسة لربط أبناء المملكة الجديدة بجذورها القديمة، ويفسر ذلك تلك الطقوس التي كانت تتبع، والحرص أن تتم الاحتفالات في أماكنها التي دارت عليها في الماضي وبنفس الخطوات.

ويبدو أن الكنيسة نجحت في ذلك إلى حد بعيد، ودلالة ذلك الإعداد الضخمة المشاركة في الاحتفالات من حجاج أو مواطنين.وإذا كانت الكنيسة قد أدت واجباتها الرعوية المختلفة فإنها حرصت على الانضباط بين أبناء الكنيسة بمختلف رواتبهم الكنسية، وكان للكنيسة محاكمها الخاصة والمستقلة، وكانت تمارس سلطاتها القضائية على كل رجالها، وكذلك على العلمانيين في حالات ما يتصل بالزواج والشرع والوراثة والهرطقة الدينية والانحرافات الجنسية [87].

وقامت الكنيسة بعقد المجامع للنظر في عزل البطاركة – كما سبق القول – مثلما حدث في حالة دايمبرتوايفرمار، غير أنه يلاحظ أن تلك المجامع كان يرأسها مندوب بابوي يتمتع بتفويض من البابا ذاته.غير أن تلك المجامع لم تكن تعقد للمحاسبة والمحاكمة فقط، فقد كانت تعقد بغرض الإصلاح. ففي سنة 1120م تم عقد مجمع في نابلس للإصلاح الأخلاقي، وكانت المملكة تمر في تلك الفترة ومنذ

ما يقرب من ثلاثة أعوام سابقة بظروف عصيبة، فقد تعرضت للهزائم ولبعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل وهجمات الجراد ونقص المؤن الأمر الذي أرجعه رجال الدين إلى غضب الله عليهم وضرورة مصالحته. ويذكر وليم الصوري أن المجمع الذي عقد في نابلس رأي "ضرورة مصالحة الرب بأعمال التقوى ورفع مستوي الأخلاق والتمسك بالنظام، وصدر عن المجتمعين وبرضاء الجميع خمسة وعشرين مادة لها قوة القانون"(88).

خاتمة:

لم تنقطع صلات الغرب بالشرق على مرّ العصور، فقد أمّ الغربيون من أبناء الكنيسة اللاتينية الشرق كسياح وحجاج، وشيّدوا في فلسطين الأديار والمناسك،ولم يشكّل الوجود اللاتيني الغربي سُلطة كنسية مستقلة إلاّ أثناء الحروب الصليبية التي أفرزت مملكة صليبية، وبطريركية لاتينية في فلسطين.وقد قامت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بواجباتها الرعوية وغير الرعوية سواء الحرب أو إدارة البلاد في حالة غياب الملك، وما إلى ذلك بشكل لا بأس به، إلا أنه كان باستطاعتها أداء ذلك بصورة أفضل في حالة مايتوافر لها من سلطة حرص ملوك المملكة على أن لا تكون كبيرة، بل عملوا على الحد منها، وعلى أن تبقى الكنيسة خاضعة دومًا لسلطانهم.

❖ هوامش البحث

(1) J.Richard, The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States, inSetton ed., A History of The Crusades Vol. V., U.S.A.1985.p.235.

(2) William of Tyer, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, transl. and annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krery, Colombia University Press1943., Vol.I, p.403.

(3) Fulcher of Charter, A History of the Expedition to Jerusalem (1095 – 1127), trans., Rita Ryan, ed..- U.S.A: Harold Fink,1969.p.115., Smail, R,C, The Crusaders in Syriaand The Holy Land, Great Brittan 1974.p.123.

(4) Richard., Op.Cit., p.239.

(5) Hamilton, Bernard, The Latin Church in The Crusader States, The Secular Church.- London, 1980.p.60.

(6) Prawer, J, The Latin Kingdom, European Colonialism in The Middle Ages, Israel, 1972.p.164.

(7) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1975.(ج1، ص325).

(8) Rowe, j.g., The Papacy and Ecclesiastical Province of Tyre, 1100-1180, The John Ryland's Library vol.43, Manchester 1960-61.p.172.

(9) William of Tyre, Op.cit.Vol.II, p.4.

(10) Boase, T.S.R, Kingdoms and Strong Holds of The Crusaders, London1971.p.42.

(11) Prawer, The Latin Kingdom., p.162.

(12) Hamilton, The Latin Church., p.243.

(13) Ibid, p.67., Richard, The Political Ecclesiastical., p.240.

(14) Richard, Op.Cit., p.243.

(15) Prawer, The Latin Kingdom., p.166.

(16) Hamilton, The Latin Church., p.77.

(17) Prawer, Op.Cit., p.167.

(18) Hamilton, Op.Cit., p.87.

(19) Smail, The Crusaders in Syria., p.124.

(20) William Of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.344.

(21) Smail, The Crusaders in Syria., p.130.

(22) John of Wurzburg, Description of the Holy Land (1160-1170 A.D.), Trans. by Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896. p. 36.

(23) Benvenisti, Moron, The Crusaders in The Holy Land.-Jeruslam, 1970, p.68.

(24) Benvenisti, Op.Cit., p.7o.

(25) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، (519-597) تحقيق وشرح وتقديم؛ محمد محمود صبيح، القاهرة 1965، ص37.

Smail., Op.Cit., p.131.

(26) Conder, C, R, The Latin Kingdom of Jerusalem.- London, 1897.p. 187, Benvenisti, Op.Cit., p.71.

(27) Benvenisti, Op.Cit., p.160.

(28) Smail, Op.Cit., p.124.

(29) Benvenisti, Op.Cit., p. 161.

(30) Benvenisti, Op.Cit., p. 165.

(31) Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in The Holy Land (1106-1107A.D.) Annotated by Sir Wilson, in P.P.T.S., vol. IV, London, (1895).p.71.

(32) Smail, Op.Cit ., p.132.

(33) Smail, Op.Cit., p.136.

(34) Conder, OP.Cit., pp.188-189.

(35) Hamilton, Op.Cit., p.137.

(36) Ibid, pp.138-140.

(37) Conder, Op.Cit., p.199., Smail., Op.Cit., p.131.

(38) Conder, Op.Cit., p.194.

(39) Ibid, p.169.

(40) Smail, Op.Cit., p.125., Prawer, The Latin Kingdom., p.167.

(41) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- بيروت، 1967. (ج2، ص134).

Grousset, RmHistoire Des Croisades Et du Royaume De Jerusalem, Tom. I, Paris 1943. p.292.

(42) Hamilton, Op.Cit., p.63.

(43) Conder, Op.Cit., p.191.

(44) Hamilton, Op.Cit., p.145.

(45) Hamilton, Op.Cit., p.146.

(46) Ibid., p.147.

(47) ارنست باركر، الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- القاهرة، 1960. ص81.

(48) Prawer, The Latin Kigdom., p.163.

(49) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص498.

(50) Hamilton, Op.Cit., p.136.

(51) Anonymous, The Deeds of the Franks and Other Piligrims to Jerusalem, ed.by Rosalind Hill, 1962, pp.94-95.

(52) Grousset, Op. Cit., tom I, p.290.

(53) Ibid, p.292.

(54) Fulcher., Op.Cit., p.166., William of Tyre, Op.Cit.Vol.I, p.450.

(55) Hamilton., Op.Cit., p.61.

(56) Hamilton, Op.Cit., p.65.

(57) ابن ميسر: أخبار مصر، ج2، تصحيح هنري ماسيه، ط. المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1919، ص64.

(58) William Of Tyre, Op. Cit., Vol.I., 39.

(59)أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون 1930م، ص86.

(60) J. Richard, The Political and Ecclesiastical., p.102.

(61) Hamilton, The Latin Church., p.129.

(62) Hamilton, Op.Cit., p.130.

(63) يوشعبراور، عالم الصليبيين/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة، 1980. ص190.

(64) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p.58.

(65) SmailOp.Cit., , p.125.

(66) Conder, The Latin Kingdom, p.174.

(67) Boas ., Jerusalem in The Crusade Time., p.156.

(68) Richard, Hospitals and hospital., p91.

(69) John of Wurzburg, Op., Cit., p.44.

(70) Hamilton, Op. Cit., p.362.

(71) Prawer, The Latin Kingdom, p.176.

(72) Prawer, Op., Cit., p.176.

(73) John of Wurzburg, Op., Cit., pp.70-71.

(74) Prawer, Op., Cit., p.177.

(75) Hamilton, Op. Cit., p. 128.

(76) نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.- الجيزة: جامعة القاهرة، 1987. ص106 (أطروحة ماجستير غير منشورة).

(77) Prawer, Op.Cit., 177.

(78) Ibid, p.178.

(79) John of Wurzburg, Op., Cit., p.19.

(80) Prawer, Op. Cit., p.178.

(81) Theodrich, Op.Cit., p.20.

(82) Daniel Op.Cit., p.74.

(83) Ibid, pp.74 -75.

(84) Fulcher, Op. Cit., p.106.

(85) Theodrich, Theodrich s Description of the Holy Places (circ 1172AD)trans. Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896.pp.14, 15.

(86) Prawer, Op., Cit., p.181.

(87) باركر الحروب الصليبية، ص80.

(88) William of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.536.